



ثم قال جلا وعلا ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي آمنت قلوبهم وسرائرهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم وبواطنهم ﴿وَوَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ [عمد: 2] عطف خاص على عام، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان بعد بعثته ﷺ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ جملة معترضة حسنة. ولهذا قال جل جلاله ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي أمرهم، أو شأنهم. وقد جاء في حديث تسميت العاطس «يهديكم الله ويصلح بالكم».

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾

ثم قال عز وجل: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ أي إنما أبطلنا أعمال الكفار، وتجاوزنا عن سيئات الأبرار، وأصلحنا شؤونهم، لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل، أي اختاروا الباطل على الحق ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ أي يبين لهم مآل أعمالهم، وما يصيرون إليه في معادهم.

﴿فَإِذَا لَقِيتُهُ الَّذِينَ كَفَرُوا فضرب الرقاب حتى إذا تخنصتُمهم فَشَدُّوا الوُتَاقَ فَمَا مَتَّأَ بَعْدَ وَإِمَا فِدَاءَ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنصَرَّ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَّيَبْلُوَنَّ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَهُمْ﴾

يقول تعالى: مرشداً للمؤمنين إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين ﴿فَإِذَا لَقِيتُهُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضْرَبَ الرِّقَابِ﴾ أي إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصد السيوف ﴿حَتَّى إِذَا تَخَنَصْتُمُوهُمْ﴾ أي أهلكتموهم قتلاً ﴿فَشَدُّوا الوُتَاقَ﴾ أي الأسارى الذين تأسروهم، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب، وانفصال المعركة مخيرون في أمرهم، إن شتمت منهم فاطلقتهم أسراهم مجاناً، وإن شتمت فاديتموهم بمال تأخذونه منهم، وتشارطونهم عليه، والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر، فإن الله سبحانه عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ، ليأخذوا منهم الفداء، والتقليل من القتل يومئذ فقال ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُشْرِكَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: 67] وقوله عز وجل: ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ حتى ينزل عيسى ﷺ، وكأنه أخذه من قوله ﷺ «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجال» أو ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ حتى لا يبقى مشرك. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ يَدِّعُونَ﴾ [البقرة: 193] وقوله عز وجل: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنصَرَّ مِنْهُمْ﴾ أي هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده ﴿وَلَكِنْ لَّيَبْلُوَنَّ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي ولكن شرع لكم الجهاد وقاتل الأعداء، ليختبركم ويبلو أخباركم. ثم لما كان شأن القتال أن يقتل كثير من المؤمنين قال ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي لن يذهبها، بل يكثرها وينميها ويضاعفها. روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قال: «يعطى الشهيد ست خصال: عند

أول قطرة من دمه تكفر عنه كل خطيئة، ويرى مقعده من الجنة، ويزوج من الحور العين، ويأمن من الفرع الأكبر، ومن عذاب القبر، ويحلى حلة الإيمان» تفرد به أحمد رحمه الله. وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «يغفر للشهيد كل شيء إلا الدين» وفي الحديث «يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته» رواه أبو داود والإمام مسلم.

﴿سَيِّدِيهِمْ وَيُصَلِّحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾﴾

﴿سَيِّدِيهِمْ وَيُصَلِّحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾﴾ أي إلى الجنة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتٍ الْغَيْرِ ﴿٤﴾﴾ [يونس: 9] وقوله عز وجل: ﴿وَيُصَلِّحُ بَالَهُمْ﴾ أي أمرهم وحالهم.

﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴿٦﴾﴾

﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴿٦﴾﴾ أي عرفهم بها وهداهم إليها. قال مجاهد: يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم منها لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحداً. وقد ورد الحديث الصحيح بذلك أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار، يتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدي منه بمنزله الذي كان في الدنيا».

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَضَرُوا اللَّهَ يَنْضَرُكُمْ وَيُنَبِّتُ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَضَرُوا اللَّهَ يَنْضَرُكُمْ وَيُنَبِّتُ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ كقوله عز وجل: ﴿وَلَيَنْضَرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْضَرُهُ﴾ [الحج: 40] فإن الجزاء من جنس العمل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُنَبِّتُ أَقْدَامَكُمْ﴾ كما جاء في الحديث «من بلغ ذا سلطان حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله تعالى: قدميه على الصراط يوم القيامة».

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصَلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴿٨﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصَلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴿٨﴾﴾ عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله تعالى: ولرسوله ﷺ وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش» أي فلا شفاه الله عز وجل: ﴿وَأَصَلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي أحبطها وأبطلها.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾﴾

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي لا يريدونه ولا يحبونه ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ ﴿١٢﴾

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني المشركين بالله المكذبين لرسوله ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ﴾ أي عاقبهم بتكذيبهم وكفرهم، أي ونجى المؤمنين من بين أظهرهم. ولهذا قال ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ ﴿١١﴾

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ ولهذا لما قال أبو سفيان صخر بن حرب رئيس المشركين يوم أحد حين سأل عن النبي ﷺ وعن أبي بكر وعمر فلم يجب وقال: أما هؤلاء فقد هلكوا، وأجابه عمر فقال: كذبت يا عدو الله، بل أبقى الله تعالى: على ما يسوءك، وإن الذين عدت لأحياء، فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، أما إنكم ستجدون مثله لم أمر بها، ولم أنه عنها، ثم ذهب يرتجز ويقول: اعل هبل اعل هبل، فقال رسول الله ﷺ: «ألا تحييه»؟ فقالوا: يا رسول الله، وما نقول؟ قال ﷺ قولوا: «الله أعلى وأجل» ثم قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال ﷺ: «ألا تحييه»؟ قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ قال: قولوا: «الله مولانا ولا مولى لكم».

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْتَمِعُونَ وَآكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ ﴿١٣﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي يوم القيامة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْتَمِعُونَ وَآكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ أي في دنياهم يتمتعون بها، ويأكلون منها كأكل الأنعام خضماً وفضماً، ليس لهم همة إلا في ذلك. ولهذا ثبت في الصحيح «المؤمن يأكل في معى واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء». ثم قال تعالى: ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ أي يوم جزائهم.

﴿وَكَايِنٍ مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ ﴿١٤﴾

﴿وَكَايِنٍ مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ﴾ يعني مكة ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد لأهل مكة في تكذيبهم لرسول الله ﷺ، وهو سيد الرسل، وخاتم النبيين، فإذا كان الله عز وجل قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله بسببهم، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء، فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والأخرى؟ فإنه رفع عن كثير العقوبة في الدنيا وجود الرسول نبي الرحمة، بأن العذاب يوفى على الكافرين به في معادهم ﴿مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ﴾ أي الذين أخرجوك من بين أظهرهم. روى ابن أبي حاتم لما خرج رسول الله ﷺ من مكة إلى الغار،

فالتفت إلى مكة وقال: «أنت أحب بلاد الله إلى الله، وأنت أحب بلاد الله إليّ، ولولا أن المشركين أخرجوني لم أخرج منك» فأعدا الأعداء من عدا على الله تعالى: في حرمه، أو قتل غير قاتله.

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ ﴿١٤﴾

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي على بصيرة ويقين في أمر الله ودينه بما أنزل الله في كتابه من الهدى والعلم، وبما جبله الله عليه من الفطرة المستقيمة ﴿كَمَن زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي ليس هذا كهذا، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْلِكُ أَن نَّاتَزِلَ بِإِذْنِكُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مِّزْقٍ مِّن مَّاءٍ حَمِيمٍ﴾ [الرعد: 19].

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنهَرٌ مِن مَّاءٍ عَذِيبٍ عَسِيبٍ وَأَنْهَرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّم يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَرٌ مِّن خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَرٌ مِّن عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَن هُوَ خَلِيدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ ﴿١٥﴾

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أي نعمتها ﴿فِيهَا أَنهَرٌ مِن مَّاءٍ عَذِيبٍ عَسِيبٍ﴾ غير متغير، تقول: أسن الماء إذا تغير ريحه. ﴿وَأَنْهَرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّم يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ﴾ أي بل في غاية البياض والحلاوة والدسومة. وفي حديث مرفوع «لم يخرج من ضروع الماشية» ﴿وَأَنْهَرٌ مِّن خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ أي ليست كريمة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل حسنة المنظر، والطعم والرائحة والفعل ﴿لَا فِيهَا عَوَلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُزْفُونَ﴾ ﴿١٧﴾ [الصافات: 47] ﴿لَا يَصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ﴾ ﴿١٩﴾ [الواقعة: 19] ﴿بَيْضَاءَ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ [الصافات: 46] وفي حديث مرفوع «لم يعصرها الرجال بأقدامهم» ﴿وَأَنْهَرٌ مِّن عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ أي وهو في غاية الصفاء، وحسن اللون والطعم والريح. وفي حديث مرفوع «لم يخرج من بطون النحل» ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ كقوله عز وجل: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمْنِينَ﴾ ﴿٥٥﴾ [الدخان: 55] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿كَمَن هُوَ خَلِيدٌ فِي النَّارِ﴾ أي أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد في النار؟ ليس هؤلاء كهؤلاء، وليس من هو في الدرجات كمن هو في الدرجات ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ أي حاراً شديداً الحر، لا يستطيع ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ أي قطع ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء. عياداً بالله من ذلك.

﴿وَمَنَّهُم مَّن يَسْتَعِجُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِن عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنفَا أُولَئِكَ الَّذِينَ

طَعَبَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ ﴿١١﴾

يقول تعالى: مخبراً عن المنافقين في بلادهم وقلة فهمهم حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ، ويستمعون كلامه فلا يفهمون منه شيئاً، فإذا خرجوا من عنده ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من الصحابة رضي الله عنهم ﴿مَاذَا قَالَ أَنفَا﴾ أي الساعة. لا يعقلون ما قال ولا يكثرثون له. قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَعَبَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي فلا فهم صحيح، ولا قصد صحيح.

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَوَسَّعَتْهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (٧)

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ أي والذين قصدوا الهداية وفقهم الله تعالى لها فهداهم إليها وثبتهم عليها وزادهم منها ﴿وَوَسَّعَتْهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ أي ألهمهم رشدهم.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ (٨)

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ أي وهم غافلون ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي أمارات اقترابها، كقوله تعالى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذِيرِ الْأُولِ﴾ (٥٦) ﴿أَرَأَيْتِ الْآزِفَةَ﴾ (٥٧) ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ (٥٨) ﴿النجم: 56-58﴾ فبعثه رسول الله ﷺ من أشراط الساعة، لأنه خاتم الرسل الذي أكمل الله تعالى به الدين، وأقام به الحجة على العالمين، وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها، وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبي قبله. وفي البخاري «بعثت أنا والساعة كهاتين» ﴿فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ أي فكيف للكافرين بالتذكر إذا جاءتهم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك؟ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ وَآئِنَّا لَهُ الْذِّكْرَى﴾ [الفجر: 23].

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبِكُمْ

وَمُتَوَكِّرِمْ﴾ (٩)

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ هذا إخبار بأنه لا إله إلا الله، ولا يتأتى كونه أمراً يعلم ذلك ولهذا عطف عليه قوله عز وجل: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به مني، أنت إلهي لا إله إلا أنت» وفي الصحيح أنه قال «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة». ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبِكُمْ وَمُتَوَكِّرِكُمْ﴾ أي يعلم تصرفكم في نهاركم، ومستقركم في ليلكم، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَلَّىكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: 60] وقيل: يعلم منقلبكم ومثواكم في الآخرة، وقيل: يعلم منقلبكم في الدنيا، ومثواكم في الآخرة. والأول أولى وأظهر.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتِ

الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ﴾ (١٠)

يقول تعالى: مخرّباً عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد، فلما فرضه الله عز وجل نكل كثير من الناس، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا بِرَكِبَتِ عَلَيْنَا أَلْتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء: 77] وقال عز وجل ههنا ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ

ءَامَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ ﴿٢٠﴾ أي مشتملة على حكم القتال. ولهذا قال ﴿فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا آيَاتُ الْقِتَالِ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ فَظَنَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء. ثم قال مشجعاً لهم ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوَّ صَدَقُوا اللَّهُ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ ﴿٢١﴾

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ أي وكان الأولى بهم أن يسمعوا أو يطيعوا أي في الحالة الراهنة ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أي جد الحال، وحضر القتال ﴿فَلَوَّ صَدَقُوا اللَّهُ﴾ أي أخلصوا له النية ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ ﴿٢٢﴾

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي عن الجهاد ونكلتم عنه ﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ أي أن تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء، تسفكون الدماء، وتقطعون الأرحام.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ ﴿٢٣﴾

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عموماً، وعن قطع الأرحام خصوصاً، بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأمثال وبذل الأموال، وفي الحديث الذي رواه البخاري «خلق الله تعالى، الخلق، فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقوي الرحمن عز وجل، فقال: من، فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، فقال تعالى: ألا ترضي أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذاك لك» قال أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ ﴿٢٢﴾ [عمد: 22].

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى أمراً بتدبر القرآن وتفهمه وناهياً عن الإعراض عنه: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ ﴿٢٤﴾ أي بل على قلوب أقفالها، فهي مطبقة لا يخلص إليها شيء من معانيه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آرْتَدُوا عَلَىٰ آذُنِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ

لَهُمْ﴾ ﴿٢٥﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ آرْتَدُوا عَلَىٰ آذُنِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ أي فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي زين لهم ذلك وحسنه ﴿وَأَمَلَىٰ لَهُمْ﴾ أي غرهم وخدعهم.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ

إِسْرَارَهُمْ﴾ ﴿٢٦﴾

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَاطِئُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ﴾ أي مالؤوهم وناصحوهم في الباطن على الباطل، وهذا شأن المنافقين يظهرن خلاف ما يظنون، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَسِّرُ سِرَارَهُمْ﴾ أي ما يسرونه وما يخفونه، فالله مطلع عليه، وعالم به، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ﴾ [النساء: 18].

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِضَرْبِوتِ وُجُوهُهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ﴾ (٢٧)

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِضَرْبِوتِ وُجُوهُهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ﴾ أي كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم، وتعاصت الأرواح في أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ بِضَرْبِوتِ وُجُوهُهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ﴾ [الأنفال: 50].

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ (٢٨)

ولهذا قال سبحانه ههنا ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَنَهُمْ﴾ (٢٩)

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَنَهُمْ﴾ أي أيعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين، بل سيوضح أمرهم، ويجليه حتى يفهمه ذوو البصائر، وقد أنزل الله في ذلك سورة «براءة» فبين فيها فضائحهم، وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم، ولهذا كانت تسمى الفاضحة، والأضغان جمع ضغن، وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٠)

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ يقول عز وجل: ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم فوقهم عياناً ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين سترأ منه على خلقه وحملأ للأمر على ظاهر السلامة، وردأ للسرائر إلى عالمها ﴿وَلَتَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أي فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم، بفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه، وهو المراد من لحن القول، كما قال أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفتلات لسانه. وفي الحديث «ما أسر أحد سريرة إلا أكساه الله تعالى جلبابها، إن خيراً فخير،

وإن شراً فشر» روى الإمام أحمد عن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال «إن منكم منافقين، فمن سميت فليقم - ثم قال - قم يا فلان، قم يا فلان، قم يا فلان حتى سمي ستة وثلاثين رجلاً، ثم قال: «إن فيكم أو منكم منافقين فاتقوا الله» قال فمر عمر رضي الله عنه برجل ممن سمي مقنع قد كان يعرفه فقال: ما لك؟ فحدثه بما قال رسول الله ﷺ، فقال: بعداً لك سائر اليوم.

﴿وَلَنْبَلُونَكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبَلُوا أَخْبَارَكُمْ﴾ ﴿٦٦﴾

﴿وَلَنْبَلُونَكُمْ﴾ أي لنختبرنكم بالأوامر والنواهي ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبَلُوا أَخْبَارَكُمْ﴾ وليس في تقدم علم الله تعالى به هو كائن أنه سيكون، شك ولا ريب، فالمراد حتى نعلم وقوعه، ولهذا يقول ابن عباس في مثل هذا: ﴿حَتَّى نَعْلَمَ﴾ أي لنرى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ﴾ ﴿٦٧﴾

يخبر تعالى: عمّن كفر وصدّ عن سبيل الله وخالف الرسول وشاقه وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى أنه لن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها، وسيحيط الله عمله فلا يشبهه على سالف ما تقدم من عمله الذي عقبه برده جناح بعوضة من خير، بل يحبطه ويمحقه بالكلية، كما أن الحسنات يذهبن السيئات.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَلَكُمْ﴾ ﴿٦٨﴾

روى الإمام أحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل فنزلت ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَلَكُمْ﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل. ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَلَكُمْ﴾ أي بالردة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ﴿٦٩﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ﴿٦٩﴾ كقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48].

﴿فَلَا تَهْتُوا وَادْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَ أَعْمَلَكُمْ﴾ ﴿٧٥﴾

﴿فَلَا تَهْتُوا﴾ أي لا تضعفوا عن الأعداء ﴿وَادْعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾ أي المهادنة والمسالمة ووضع القتال بينكم وبين الكفار في حال قوتكم وكثرة عددكم وعددكم ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي في حال علوكم على

عدوكم، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام في المهادنة والمعاهدة مصلحة فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله ﷺ حين صدّه كفار قريش عن مكة، ودعوه إلى الصلح، ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين، فأجابهم ﷺ إلى ذلك. وقوله جلت عظمتة: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء ﴿وَلَنْ يَزِيدَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ أي ولن يحبطها ويطلها، ويسلبكم إياها، بل يوفيكم ثوابها، ولا ينقصكم منها شيئاً.

﴿إِنَّمَا لِلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَنَفَّسُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ (٣١)

يقول تعالى تحقيراً لأمر الدنيا تهويناً لشأنها: ﴿إِنَّمَا لِلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ﴾ أي حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله عز وجل ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَنَفَّسُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ أي هو غني عنكم، لا يطلب منكم شيئاً، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لإخوانكم الفقراء، ليعود نفع ذلك عليكم، ويرجع ثوابه إليكم.

﴿إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَنُحْرِجْ أَضْعَانَكُمْ﴾ (٣٧)

﴿إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا﴾ أي يخرجكم تبخلوا ﴿وَنُحْرِجْ أَضْعَانَكُمْ﴾ قال قتادة: قد علم الله أن في إخراج الأموال إخراج الأضغان، وصدق، فإن المال محبوب، ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى شخص منه.

﴿هَاتِنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ (٣٨)

﴿هَاتِنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ﴾ أي لا يجيب إلى ذلك ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَّفْسِهِ﴾ أي إنما نقص نفسه من الأجر، وإنما يعود وبال ذلك عليه. ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ أي عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه دائماً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ أي بالذات إليه، فوصفه بالغنى وصف لازم له، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم لا ينفكون عنه. وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ أي عن طاعته واتباع شرعه ﴿يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ أي ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره. روى ابن أبي حاتم وابن جرير عن أبي هريرة قال: إن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا...﴾ قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا، ثم لا يكونوا أمثالنا؟ قال: فضرب بيده على كتف سلمان الفارسي رضي الله عنه، ثم قال «هذا وقومه، ولو كان الدين عند الثريا لتناولوه رجال من الفرس» تفرد به مسلم.